

البينية في العلوم الإنسانية: التأسيس والضرورة

بن رايح أحمد

جامعة الجيلالي بونعامة (الجزائر)

a.benrabah@univ-dbk.m.dz

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ القبول: 2022/11/18

تاريخ الاستلام: 2022/08/07

ملخص: إن أهم ما تعانيه الدراسات الاجتماعية والإنسانية في كثير من الدول هو الانعزالية في التخصصات، كون كل تخصص من تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية يكتفي بنفسه ولا يريد أصحابه الاستعانة بتخصصات أخرى، لكن ما التراكم الذي عرفته العلوم والتعقيد الكبير الذي تتميز به الحوادث الإنسانية فرض ابتداء من منتصف القرن العشرين فتح أفق جديد لهذا النوع من الدراسات بإدخال تصور جديد مازال قيد البحث والدراسة، في هذه الورقة سنحاول تبين أهمية ما أصبح يسمى في مجال العلوم بالدراسات البينية، ولكن هذه الأهمية لا تكفي نفسها بنفسها إلا إذا تم تدعيمها بإرساء أسسها الإبيستيمولوجية، وهذا ما يمنح هذا النوع من الدراسات مصداقية أكثر، انفتاح أفق جديدة على صعيد الدراسة والبحوث الميدانية في مجال الإنسانيات باعتبارها أشرف العلوم كونها تدرس الإنسان.

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية والاجتماعية – الإبيستيمولوجيا – البينية – الأسس -

Abstract: If the human and social sciences suffer from certain shortcomings in terms of method, this is essentially due to the complexity of their subject, which is human events, but what this field is lacking is a practice that guarantees them more solidarity, it is the compartmentalization from which they suffer, which especially during the second half of the 20th century required the appearance of multidisciplinary studies, that is to say the opening of specialties between them to approach and face their object with more coverage and extension, therefore the relevance of this new concept is in the sight of the specialists is indisputable, in our investigation we sit to determine as far as possible the epistemological bases of this importance.

Keywords: Human and social sciences – epistemology – disciplinarily – foundations

مقدمة :

إنّ تسمية النشاطات الفكرية والعلمية في اللسان العربي تخضع إلى آليات قد نجعل البعض منها وما نعرفه عن البعض الآخر يعود بالأساس إلى التراث وكذلك إلى نزعة المحاكاة من خلال عمليات الترجمة التي لأسباب عديدة تلقى إجماعاً بين المشتغلين في حقول المعرفة عموماً.

لما يتعلق الأمر ببعض المصطلحات المستعملة في الحقول الأكاديمية، نجد أنفسنا أما زخم من المفردات التي تجعل الدلالة الاصطلاحية واضحة بالنسبة لأهل الاختصاصات، فإذا تأملنا مفردة "تخصص" التي تقابلها في اللغات الأجنبية كلمة (discipline)، فإنها تدل على فرع من فروع علم معين، أو كذلك على مجموعة مواد مقررة لاستكمال منحنى دراسي معين، كأن نقول تخصصات العلوم الإنسانية (les disciplines des sciences humaines)، والمقصود بهذا المصطلح ليس واحداً، كون معنى العلوم الاجتماعية والإنسانية خضع إلى تغيرات ارتبطت بالمكان والزمان وما يحمله من معطيات علمية وأخرى خارجة عن سياقه. ففي فرنسا مثلاً، تم توسيع كلية الآداب إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابتداء من سنة 1958 وهذا باقتراح من أحد الأساتذة الفرنسيين. بينما العلوم الاجتماعية أخذت دلالات استمدت من دراسات أوجست كونت وماركس ومفكرين آخرين كان لدراساتهم الأثر الكبير على مضمون البرامج التعليمية الجامعية، ما أدى إلى قطاعية قد لا نجد لها مبررات منطقية أو إبستمولوجية، لأن الفصل بين الإنساني والاجتماعي هو كالفصل بين الكل وأجزائه لأسباب تعليمية تقنية أكثر ما هي إبستمولوجية.

الذي يهمنا هنا هو كلمة "discipline" كما هي في اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية، فقواميس هذه اللغة تتفق كلها على أنّ هذه المفردة تحمل على الأقل دالتين، الأولى الانضباط والطاعة المفروضين على أفراد جماعة ما ينتمون لها طوعاً أو قسراً، كالجيش مثلاً أو المدرسة، ومنه المجلس التأديبي الذي يعقد بسبب خرق أحد أفراد هذه الجماعة القواعد أو القوانين المنظمة لها لينظر في حالته وإحاقه العقوبة الملائمة، وأما الدلالة الثانية فهي التخصص العلمي الذي يحتويه ميدان من ميادين العلوم¹.

وبالرجوع إلى المعنى الاشتقاقي فإن كلمة discipline مشتقة من الكلمة اللاتينية disciplina والتي تعني حسب ما ورد في قاموس غافيو Gaffiot اللاتيني الفرنسي « فعل التعلم، وكذلك الأشياء التي هي مادة الدراسة والتدريس، المعرفة المكتسبة، العلم »²، يتضح من هذا أن ما يطلق عليه في العربية واتفق عليه بأنه "تخصص علمي" (discipline scientifique)، فإنه في أصله اللاتيني يشير إلى كل ما يتعلق بالتعلم والدراسة والتكوين العلمي. ولهذا لا حرج في تعويض كلمة "تخصص" بـ "المادة التعليمية". لكن

التطورات التي عرفتها النظم التعليمية وتدرجها أدى إلى تسمية مواد العلوم عامة والعلوم الإنسانية خاصة بالـ "التخصصات" (spécialités).

سنتخذ هذا المعنى عند حديثنا عن التخصص العلمي أو الأكاديمي، ولا داعي بالتالي الدخول في الأسباب التي دفعت الباحثين العرب إلى استعمال هذه المفردة، لأن ذلك لا يخدم بحثنا هذا. وإذا بحثنا عن الزيادات التي عرفتها كلمة discipline ، فنجد interdisciplinarité و multidisciplinarité و transdisciplinarité

وقبل التساؤل عن معنى هذه المصطلحات التي قد تأخذ مرتبة التصورات ضمن بعض الدراسات، فإنه من الضروري الإشارة إلى أهمية البحث في ما يتفق عليه في اللغة العربية بـ (البينية) الذي يأخذ مقابله في اللغات الأجنبية بـ interdisciplinarité ، إيف لونوار (Lenoir) أكد في مقال له « أن الدراسات حول البينية تهدف إلى تطوير العلم دون إبعاد النظر عن الإنسان »³، فإذا كان هذا هو الهدف، فإن محاولتنا هذه تسعى إلى إيجاد الأساس الإبيستيمولوجي أو التنبيه إلى المشكلة - إن أمكن ذلك -، وهذا ما يجعل الضرورة قائمة عليه، خاصة لما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية والاجتماعية باعتبارها تشكل ميدانا له أهميته من الناحية العلمية والعملية على حد سواء، لأنها ملتصقة التصاقا وثيقا بالإنسان من حيث هو موضوع هذه العلوم والبحث عن كفاءات زيادة درجة الموضوعية والفعالية في هذه العلوم، دون إبعاد أفق تغيير وضع الحياة الاجتماعية وتحسينها.

1- في معنى البينية (L'interdisciplinarité)

إن البينية من حيث هي اهتمام جديد في إطار الدراسات والبحوث العلمية بشكل عام كونها تشمل كل ميادين العلوم، فهي تعني في أبسط دلالتها « المواجهة (التعاون والتضامن) بين خبرات عدة تخصصات علمية من أجل تصور مشروع من زوايا متعددة »⁴، كما أنها تعني كذلك « فن العمل الجماعي الذي يشارك فيه عدد من الأشخاص أو الفرق المنتمية لعدة تخصصات »⁵. هذا يجزئنا إلى الإشارة بأن البينية لا تخص ميدانا واحدا من ميادين العلم، بل أنها مورست أولا في العلوم الطبيعية ثم انتقلت بحكم طبيعة الموضوع الأكثر تعقيدا إلى ميدان العلوم الإنسانية.

ويمكن لنا أن نستنتج من مضمون التعريفين السابقين، أن البينية لم تتحول إلى مبحث جدير بالأهمية بسبب الرغبة الجامحة عند الإنسان بتكوين العلوم وتوسيع مجالات بحثها، إلا لما اقتضت الضرورة إلى ذلك. وتجمع الأسباب المؤدية إليها كآفاق جديد يستلزم إعادة تنظيم التخصصات العلمية.

هنا تحديدا نصل إلى نقطة لها أهميتها من الناحية الإبيستيمولوجية، حيث يحاول هذا المبحث الفلسفي الهام أن يجيب عن عدة أسئلة من بينها:

- كيف يظهر العلم وكيف يتطور؟

- ما هي الأسباب والعوامل التي ساهمت في تطوره بحيث أصبح على الشكل الذي هو عليه في زماننا هذا؟

إنّ هذه الأسئلة وأخرى تكملها ساهمت منذ القرن التاسع عشر في ظهور ما أصبح يسمى بفلسفة العلوم التي اقترح مجالها الفيلسوف الفرنسي أوجيست كونت (1798 - 1857)، كما قام ولهم ديلتاي الفيلسوف الألماني (1934 - 1911) بعده بالبحث عن علاقة العلوم الطبيعية بالعلوم الإنسانية حيث وصل ضمن أبحاثه إلى فصل الميدانيين عن بعضهما⁶، لكن ما شغله أكثر هو محاولته وضع الأسس المتينة التي تُبنى عليها ما يسميه هو بالعلوم الروحية أو الإنسانية، وأصبح بذلك أول من حاول إيجاد الأساس الإبيستيمولوجي المنطقي لهذه العلوم، حتى يضمن كما قال في عدة مناسبات صدقية (validité) وموضوعية نتائج هذه العلوم، ما جعل البعض يشبه عمله بعمل كانط في مجال الرياضيات والعلوم الفيزيائية، وتعمقت وتعززت مثل هكذا دراسات في القرن العشرين على يد مجموعة من فلاسفة العلم أمثال غاستون باشلار وتوماس كوهن وخاصة إدغار موران الذي نرى في مقارنته أنموذجا يناسب ما نهدف إليه، لذلك سيكون اعتمادنا عليه في محاولتنا هذه لبيان ما نصبو إليه وهو البحث عن الأساس الإبيستيمولوجي الذي يمكن اعتمادا عليه بيان أهمية الدراسات البينية في ميدان العلوم الإنسانية. وعليه فإنّ الاعتماد على تاريخ العلوم سيساعدنا على وضع المقدمات الكبرى لهذا التأسيس.

هنا بالضبط سنبدأ الحديث عن أهم التحولات التي عرفت العلوم بدون التمييز بين ميدان الطبيعيات وميدان الإنسانيات، والهدف من وراء هذا إنما يتمثل في التأكيد على أن البينية إنما هي مرحلة جديدة أدركتها العلوم ابتداء من النصف الثاني للقرن العشرين.

2- من الموسوعية والتخصصية إلى البينية:

الدراسات البينية لا تمثل ضمن المعطيات التي سنبينها خيارا أو مقاربة طوعية يتبناها بعض الباحثين لتكملة أو إنضاج بحوثهم، بل هي حالة أو مرحلة جديدة أصبح الالتزام بها ضرورة من ضرورات البحث العلمي المعاصر، سواء أكان ذلك في ميدان الطبيعيات أو الإنسانيات، ومنذ منتصف القرن العشرين ازداد النقاش حول تلك الأهمية وتلك الضرورة. ولكن الوصول إلى هذه المرحلة من الدراسات مر بمرحلتين أخريين نحاول عرضها فيما يلي:

1.2 - الموسوعية (L'encyclopédisme) :

بالتعريف القاموسي فإنَّ الموسوعية تعني النزعة إلى الجمع النسقي لمختلف المعارف في مختلف الميادين⁷، هذا التعريف المستمد من قاموس لاروس⁸، قد لا يفي بالغرض كونه يشير فقط إلى نزعة تهدف إلى جمع المعارف بحيث تجتمع على شكل أنساق أي منظومات معرفية لها صفات وشروط العلم، وبالتالي فإنَّ تعميق البحث حول هذا المصطلح المهم يصبح أمراً ملحا للوصول إلى ما نسعى إليه، لقد جاء في موسوعة إينيفارساليس (Universalis) وفي باب (Encyclopédie) ما يلي:

>>هي عبارة يونانية مشكلة أولاً من kuklos وتعني دائرة المعارف ونقلها، وثانياً paideia وتعني الأطفال، وعليه فالمعنى هو دائرة المعارف التي تنقل إلى الأطفال، وقد استعملت الكلمة باللاتينية في القرن السادس عشر⁹.

المقصود بالمرحلة الموسوعية هي مرحلة عرفها تطور الفكر الإنساني والتمتيزة بتمكن فرد واحد يسمى العالم أو الفيلسوف أو الحكيم أو العلامة¹⁰ (polymathe) من السيطرة على مجموعة من علوم زمانه، وفي هذا الإطار بالضبط يمكن اعتبار أرسطو من أوائل الموسوعيين كونه عرف الفيلسوف بأنه الشخص الذي يمتلك العلوم بقدر الاستطاعة البشرية، ولقد سار الفلاسفة على هذا المنوال حتى بدايات انفصال العلوم عن الفلسفة وحصولها بعد استقلالية نسبية إزاء العلم الأم.

مثل هكذا محاولات لم تكن غائبة في تراثنا العربي الإسلامي، بحيث تعد أعمال أبي نصر الفارابي المتعلقة بتصنيفه للعلوم مندرجة في هذا السياق. حيث أهم ما قام به هو التمييز بين العلوم العقلية والعلوم الشرعية¹¹، دون إلغاء العلاقة بينهما.

أما عند مدخل الحداثة الأوروبية فيعد رينيه ديكارت من أكثر الذين صنفوا المعرفة وبينوا أهدافها وغايتها، وهذا لا يعني أن المسألة اقتصرَت على أعمال هذا الفيلسوف فقط، بل المحاولات في أوروبا تعددت وكثرت وإذا لم هذا صلب موضوعنا، فإننا نكتفي ببعض الإشارات التي أدى تراكمها وحدث ما يسمى بظهور العلوم خاصة منها علم الفيزياء وعلم الأحياء، ونظراً من جهة ثانية لنجاح الثورة الصناعية وتطور الرأسمالية اللذين أديا إلى حدوث تغيرات هامة على صعيد الأوضاع السياسية الاجتماعية، فإن نزعة التخصص هاته زادت حدتها وأصبحت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، وفي نهاية المطاف أدى ظهور الجامعات - كمؤسسات موكول إليها إنتاج المعرفة العلمية وتطويرها ونشرها في الأوساط الاجتماعية - إلى محاولات عديدة لأجل إخضاع التخصصات ضمن المسار العام للدراسات والأبحاث الجامعية. فإنَّ هذا الإجراء الجماعي عرف ازدهاراً منقطع النظير في عصر الأنوار الفرنسية، حيث قام دونيس ديدرو (Denis

(Diderot) ودالامبير بنشر (Jean Laurent d'Alembert) الموسوعة الفرنسية التي بقيت سارية المفعول من حيث النشر والبيع من سنة 1751 إلى غاية 1782 *

وما تجدر الإشارة إليه في إطار هذا الباب هو أنّ الموسوعية بدأت تنهار بحكم التطور الذي شاهده العلم وكذا التراكمات المعرفية الهائلة وتطور النشاط الصناعي الذي لتبع نتائج هذه العلوم، ولكن أهم ما زاد في تسارع هذه الحادثة هو ظهور الجامعات والأكاديميات العلمية التي قام الحكام بإنشائها في كثير من المدن الأوروبية، ومن آثار هذا التطور مساهمة الفلاسفة في تحديد معالم التخصص في ميدان العلوم الطبيعية خاصة، وهذا ما أدى إلى تجاوز الموسوعية التي كانت سائدة منذ بداية الحادثة الأوروبية.

وبصورة عامة فإنّ الموسوعية (l'encyclopédisme)، « كما سميت حاليا من طرف الفيلسوف الفرنسي جيلبار سيموندين (Gilbert Simondon)، تمتلك فضيلة بالغة: إنها تمارس البينية من خلال التوحيد الفلسفي للعلوم، مقدما في نفس الوقت عناصر جديدة وحقيقية لوضع نظرية البينية في أساسها وبالتالي في ما يمكن أن يبرر»¹²، هذا التصريح يعتبر بالنسبة لنا على الأقل فتحا جديدا يمنح البينية مكانة لا يستهان بها في إطار الدراسات الفلسفية المعاصرة.

2.2 - التخصصية (La disciplinarité).

مما سبق، نستنتج أنّ انهيار الموسوعية أدى مباشرة إلى ظهور التخصص أو التخصصات العلمية (Les disciplines scientifiques) بالمعنى الذي أشرنا إليه أعلاه، ولا بأس أن نعرفها كذلك بأن التخصص هو الحالة التي مرت بها العلوم طيلة القرن العشرين ومازالت قائمة إلى يومنا هذا، ما دفع جان لويس فايبياني يؤكد أننا مررنا بعصر التخصص (L'âge de la disciplinarité)¹³، معتبرا إياها « مجموع العلاقات بين موضوعات وأشخاص الذين يجعلون من خصوصية ميدان معرفي برنامج بحث »¹⁴. وعليه فإنّ دراسة موضوع ما دراسة تؤتي بثمارها يستلزم تحديده والتفكير فيه بأنه كل يستحق البحث والنظر، وبالتالي تقطيع الموضوعات الواقعية إلى تخصصات يستجيب أكثر ما يستجيب إلى الفعالية المرجوة منه، ولكن ونظرا لتشابك الموضوعات الواقعية خاصة المرتبطة بالعلوم الإنسانية وتقاربها وتداخلها يدفعنا إلى طرح السؤال التالي:

متى ظهرت التخصصات العلمية؟

للإجابة عن هذا السؤال لنا أن نقول بأنّ أعمال أوجيست كونت بمثابة التأسيس الإبستمولوجي لهذا الحدث العلمي الهام. أوجيست كونت يعد واحدا من الفلاسفة الأوروبيين الذي كان له مشروع إصلاحي

عمل طيلة حياته على تأسيسه على منطلقات علمية ما أدى على صعيد الفلسفة بظهور ما أصبح يسمى فيما بعد بفلسفة العلوم¹⁵.

أوجيست كونت صنف العلوم استنادا إلى مبدئين أساسيين هما البساطة والتعقيد، وحسبه فإن ظهور العلوم كان تاريخيا مرتبطا بالانتقال من الأولى نحو الثانية، من هنا العلوم التي ظهرت أولا هي العلوم الأكثر بساطة وآخرها في الظهور هي الأكثر تعقيدا، وبناء على كان جدول التصنيف كما يلي:

الرياضيات ثم علم الفلك ثم الفيزياء ثم البيولوجيا وأخيرا علم الاجتماع. ورغم ما تخللته من نقائص أو ما يُظن أنه كذلك فمرده هو المنطلق العام لفلسفة أوجيست كونت وهو ضرورة انتصار الفكر الوضعي (La pensée positiviste). وقد حدد أهداف العلوم المذكورة بأغراض عملية نفعية ولكن كذلك وخاصة أغراض إصلاحية، لقد اقتنع بأن فرنسا كانت تعيش أزمة حادة كان يستوجب إيجاد الحلول المناسبة لها، هذه الأزمة أخذت مظهرين أساسيين الأول هو سيطرة رجال الدين والجيش على الحياة العامة وهذا ما يستوجب إبعادهم، وثانيا المنظومة التعليمية بصورة عامة كانت لا تستجيب إلى متطلبات التقدم والرفق بحكم سيطرة التعليم الديني على المؤسسات التعليمية، ومن هنا فإن « الإصلاح الاجتماعي يستلزم المرور بإصلاح فكر، فصدف الثورة أو العنف لا يسمحان بإعادة تنظيم مجتمع مأزوم »¹⁶. وإذا كانت نظرية التصنيف لا تستقيم إلا من خلال ربطها بما سماه بقانون الحالات الثلاثة، فإن النتيجة التي يؤكددها في النهاية هي أن الفكر الوضعي الذي أدركته أوروبا هو الفكر الإنساني الذي يجب الاقتداء به، والمجتمع الصناعي الذي أدركته أهم دول أوروبا هو المجتمع الذي يجب أن تدركه البشرية جمعاء لاحقا.

وبناء على هذه التقسيمات التي أصابت المعرفة العلمية والفلسفية خصوصا والمعرفة الإنسانية عموما، نشأت الجامعات مستجيبة لهذا التقسيم، وأكثر من ذلك ظهرت محاولات أخرى تذهب إلى أبعد من هذا وهي إخراج الفلسفة من دائرة المعارف واعتبارها معرفة لا طائل من ورائها لتجر بعد ذلك العلوم الإنسانية برمتها إلى دائرة العلوم الوضعية، هذه المحاولات كان على رأسها أصحاب الوضعية المنطقية في مختلف تعبيراتها. إلا أن هذا المشروع باء بالفشل وأدرجت الفلسفة ضمن العلوم الإنسانية.

3.2 - نتائج التخصصية وانفتاح أفق البينية:

1.3.2 البينية وأساسها الإستيمولوجي:

البينية (L'interdisciplinarité): نعتبر البينية أولا بأنها حالة يريد الباحثون تطبيقها في مجال البحث العلمي عامة والعلوم الإنسانية خاصة، بسبب ما أصاب التخصصات من تقارب وخاصة تهالك النزعة

التخصصية كما بين ذلك لويس فابيان « فالتنظيم التخصصي للمعارف يبدو حاليا قد استهلك كل طاقته، ومستلزمات البينية أصبحت شائعة حاليا»¹⁷.

أما في خصوص معناها فإنّ البينية هي نزعة أصبحت مختلف العلوم تنحو نحوها قصد منح الدراسات العلمية نجاعة وفعالية أكثر استنادا إلى نظرة أكثر شمولية بغية تغطية جميع أو أكثر جوانبها. وحتى نبين أهمية وضرورة البينية في العلوم عامة والعلوم الإنسانية خاصة يستوجب تقديم ملاحظات نقدية تنكشف من خلالها المشاكل التي تطرحها التخصصية خاصة من جهة علاقة المعرفة العلمية بالواقع. من هذه الجهة سنعتمد على أعمال إدغار موران التي فعلا تنسجم مع السياق الذي نحن بصدد تحليله،

إدغار موران (Edgar Morin) (1921) الفيلسوف الفرنسي المعاصر يعد من أكثر الذين ناقشوا المعرفة العلمية المعاصرة من منطلق إبستمولوجي فلسفي، وكان غرضه بالدرجة الأولى إصلاح الفكر الإنساني كما هو متجل في العقلانية المعاصرة التي يرى بأنها في حالة أزمة.

في واحد من أهم كتبه "الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب" * (1969)، يثير عدة قضايا متصلة بالعلوم الطبيعية والإنسانية، مستعملا في ذلك جهازا مفاهيميا لم نعهده على صعيد البحث الإبستمولوجي، فيقر أولا بالإنجازات التي حققتها العلوم بصورة عامة منذ الحداثة، تجريبية كانت أم إنسانية، وبنفس المقدار الذي نما فيه هذا التقدم نما معه وبصورة موازية الجهل والعى¹⁸.

يتحدث موران عن باطولوجيا (حالة مرضية) المعرفة ليحاول أن يبين من خلال هذا العنوان الأسس التي بني عليها العلم المعاصر ليصل في النهاية إلى طبيعة الأزمة التي أصابت العقلانية المعاصرة، ف"العقل الأعمى" ليس سوى هذه العملية التي عرفت العلوم فهو « يدمر المجموعات ويعزل كل موضوعاتها عن بيئتها »¹⁹، فأهم النتائج التي أدى إليها التفكير المبسط هي رِيضَنَة (Mathématisation) وصَوْرَتَة (Formalisation) الموجودات من خلاق النظرة الرياضية والمنطقية إلى الواقع المعقد، فالعلم المعاصر لا يأخذ بالاعتبار إلا الكيانات المُكَمَّمة والمُصَوَّرَة، بهذه الكيفية انفصل الواحد عن المتعدد « فإما أن يوحد من خلال إلغاء التنوع، أو يضع العناصر جنبا إلى جنب دون تمثل الواحد »²⁰، وهو لم يكتف بهذا التوصيف الذي - قد يثير مشاعر النفور-، بل يصل إلى اعتبار العقلانية المعاصرة ظلامية معاصرة لا يستطيع فيها حتى العلماء حتى التحكم في ما أنتجوه من حقائق أصبحت في يد الدول.

ومن هنا لنا أن نتساءل عن المصير الذي يجب أن يؤول إليه المعاصر حتى يتخلص مما هو فيه ؟

في كتاب آخر " النهج - إنسانية البشرية، هوية البشرية*، تحدث إدغار موران عن الثالوث البشري الذي يعتبره المركب الأساسي الذي آلت إليه البشرية بعد عهود طويلة من التطور. هذا الثالوث يتوزع عبر ثلاثة مجالات كلها مشكلة لحقيقة الإنسان هي:

أ- ثالوث الفرد - المجتمع - النوع.

ب- ثالوث الدماغ الثقافة الذهن.

ت- ثالوث العقل - الانفعالات - الغريزة²¹.

ما يهمنا هما هو الثالوث الأول لأنه يساعدنا في بحثنا هذا كونه التسليم به يؤكد ضرورة الدراسة البينية للحوادث الإنسانية فردية كانت أو اجتماعية وهو الثالوث المعبر عنه بـ"الفرد - المجتمع - النوع، فهذا المعنى لا يمكن فصل الفرد عن المجتمع والنوع، كما لا يمكن فصل المجتمع عن النوع والأفراد.

إدغار موران يعترف بالنزعة الفردانية التي ازدهرت مع ظهور الحداثة الغربية، ومهما كانت القيمة التي أسندت لها فإنها في نظره لا تشكل كامل النظرة الواجب تقديمها حول الإنسان الذي يتشكل في حقيقة أمره من هذا التركيب الثلاثي: الفرد - المجتمع - النوع، وبالتالي تصبح الوحدة الفردية محصلة ثلاثة أبعاد يستحيل الفصل في ما بينها وهي: النفسي (الفردية) والاجتماعي أو الأنثروبولوجي (الاجتماعي) وأخيرا البيولوجي (النوعي)، وهنا يقول موران: « ويتضمن كل واحد من هذه المصطلحات المصطلحات الأخرى، ليس الأفراد داخل النوع فقط بل النوع داخل الأفراد وليس الأفراد داخل المجتمع فحسب، بل المجتمع أيضا داخل الأفراد من خلال جلبيه إياهم ثقافته منذ ولادتهم. »²². تتضح هكذا التركيبة الثلاثية للإنسان.

المسألة لا تتوقف عند هذا الحد بل تتعداه إلى علاقة تضاد من خلال ما يوجد من صراع بين الفرد والمجتمع الذي كونه من جهة، والفرد والنوع من جهة ثانية عندما يرغم الأول الثاني بخدمته لاستمراريته²³، ولكن الصراع ليس ليس العلاقة الوحيدة التي تربط بين ما يتشكل منه الإنسان كون هذه الأطراف تتحاور فيما بينها²⁴.

وبعد هذا التحليل يطرح إدغار موران مشكلة إبستمولوجية ليوسع من خلالها أفق دراسة الإنسان كفرد ومجتمع وكنوع، ليعبر عن هذا التداخل باللمحة الإبستمولوجية²⁵ مشيرا إلى المفارقات المنهجية الملازمة لها حيث يقول: « لكن كيف ندرك إذن الدورة المكررة بين الإحيائي والثقافي، في حين أنه لا يمكن

* إدغار موران، النهج، بشرية الإنسانية، هوية البشرية، ترجمة د.هنا صبحي، ط1، أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

تطبيق مفاهيم البيولوجيا المنهجية على ما هو إنساني بحث في الإنسان، ولا يمكن تطبيق مفاهيم الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم النفس البشري على التنظيم البيولوجي»²⁶. من هذا نستنتج على الأقل بأن ظاهرة التعقيد بيئة وعليه يستلزم الأخذ بعين الحسبان هذه الخصائص المميزة لكل ما هو إنسان ليسمح هذا بتجاوز التبسيط الملازم للنظرة التخصصية التي غلبت أحيانا المناهج الوضعية عندما تعلق الأمر بدراسة الإنسان.

إدغار موران لا يكتفي بهذا، بل يعمق تحليله محاولاً إيجاد الأساس المكين الذي يمنح البينية مشروعية إبيستيمولوجية تجعلها على الأقل مشروعاً معرفياً إصلاحياً، كون فلسفته بصورة عامة تندرج في نظرة شمولية حاول من خلالها إعادة النظر في الإنسان والبُنى المعرفية التي شكلت العلانية المعاصرة. وفي هذا الإطار بالذات يقوم بتحليل مفهوم جعله أساسياً في منظومته النظرية وهو << نسق البساطة >>، ويقصد به النسق الذي يبينه العلم عندما يلاحظ الظواهر فيرد الكل إلى قانون أو مبدأ واحد²⁷.

وإذا اعتمدنا على منطلق نقدي تحليلي فنقول بأن تخصصات العلوم الإنسانية قريبة من بعضها البعض بحيث يصعب وضع خط فاصل بين تخصص وآخر، إضافة إلى هذا لا يمكن من جهة أخرى القول بأن التقسيم والتجزئة التي خضعت لها التخصصات واحدة في كل الدول، فكل دولة اختارت تقسيماً يتماشى وأهدافها المعلنة وغير المعلنة، لذلك قال جان لويس فابياني « كل واحد يعرف مثلاً بأن التمييز بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ليس له أي مبرر إبيستيمولوجي »²⁸، وهكذا يصبح البحث عن أفق جديد يعوض التخصصية أصبح أمراً ملحاً بسبب خاصة تراكم المعارف وتقاربها، لذلك يقول جان لويس فابياني « بأننا نزع إلى الاعتقاد بوجود مجموع منسجم للمعارف الجزئية، يضمن أفقاً لنمط من الترابطات المتكاملة للتخصصات المفهومة كأشكال خاصة ومؤقتة، مقطوعة من مجموع أوسع، يندرج ضمن رؤية علمية عامة التي لا يمكن اجتزاؤها من كل ولا يمكن إدراجها ضمن "نظرية كلية" »²⁹.

3- البينية بين العوائق والآفاق:

بعد العرض الذي قدمناه وحاولنا من خلاله بيان الأساس الذي تبني عليه الدراسات البينية، نعتق أنه لا بد من الإشارة إلى الصعوبات التي تعترض تطبيق البينية على صعيد البحث أو خاصة على الصعيد التكويني بالنسبة لطلبة العلوم الإنسانية على وجه الخصوص.

لقد نالت الدراسات البينية اهتمام الدارسين خاصة ابتداء من مطلع الألفية الثالثة، وإن كان هذا الأمر قائماً على المتلقيات والندوات الفكرية التي تقام هنا وهناك، فإن ردود الأفعال المتناقضة التي ميزت المطالبة بضرورة الإصلاح لها مبررات لا تصدر من البينية ذاتها، لأن تطبيقها في المسار التكويني الجامعي

يطرح أكثر من مشكل إداري بالدرجة الأولى، لذلك رفضها بهذا مبررات لا يعني عدم جدواها، وإنما كما هو موجود في كل المؤسسات التعليمية العليا فإنها تستلزم تغييرات عميقة على مستوى التنظيم الإداري للجامعات، وإن كان هذا مقبولا في بعض الحدود، فإنه لا يعني استحالة إدراجها ضمن برامج البحث التي تقوم بها مخابر ووكالات ومراكز البحث العلمي خاصة في بلادنا التي بسبب كثرة المشاكل على الصعيد الاجتماعي والمبني لا يمكن ان يترك البحث مقتصرًا على التخصصية لأن ذلك لا يستقيم مع أهداف التنمية الشاملة.

وكما أكد جان لويس فابياني (Jean Louis Fabiani)، أن التنظيم الحالي للتخصصات كان استجابة لما سماه بالنظام الوظيفي للتمييز بين المعارف (L'ordre fonctionnel des différenciations du savoir) أكثر منه استجابة إلى ضرورة منطقية. وعليه فإنه لا يستجيب إلى أي مطلب إبستمولوجي مما يجعل إعادة النظر فيه أمرا لا يتعارض مع ضرورات البحث العلمي ولا مع أهدافه ونجاعته.

والعلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر هي بأمس الحاجة إلى مثل هكذا بحوث ودراسات، لأنه لا يمكن الحديث عن نجاعة الدراسات الاجتماعية عندنا بإغفال البينية أو تجاهلها، لأنه مهما كانت توجهاتنا الفكرية تبقى الموضوعية والحرص على إدراكها هدفا مشتركا بين الباحثين والدارسين، وعليه تفتح المجال إلى الدراسات البينية ولو على صعيد فرق البحث والمخابر يعد الخطوة الأولى وحجر الأساس لدراسات مستقبلية أكثر كثافة وانتشارا، قصد تقديم الحلول لمشاكلنا المعقدة.

المراجع والهوامش:

¹ <https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/encyclop>: Tendance à l'accumulation

.système des connaissances dans les domaines les plus divers.

Gafiot Félix, dictionnaire latin français, Hachette, Paris, 1936, p. 535.²

. Yves Lenoir, L'interdisciplinarité : aperçu historique de la genèse d'un concept, Erudit.org ³

<https://www.linternaute.fr/dictionnaire/fr/definition/interdisciplinarite/>⁴

⁵ <https://fr.wikipedia.org/wiki/Interdisciplinarité/>

⁶ أنظر كتاب مقدمة لدراسة العلوم الروحية، ولهم ديلتاي.

⁷ <https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/encyclop>: Tendance à l'accumulation systématique des

connaissances dans les domaines les plus divers

Quant à l'encyclopédisme, il existe en tant qu'intention avant toute volonté éditoriale et dès qu'un ⁸

ensemble de connaissances et d'informations est jugé digne de mémoire et de

Transmission.

Une expression grecque, évoquant à la fois le « cercle » – *kuklos* – des connaissances et la transmission du savoir à l'enfance – *paideia* –, reprise par Quintilien pour former un mot latin passé dans les langues moderne au XVI^e siècle Personne aux connaissances variées et approfondies, source wikipédia.¹⁰

أنظر كتاب أبي نصر الفارابي إحصاء العلوم. حيث وصفه بروكلمان بأنه أشبه بدائرة العلوم، إحصاء العلوم، صدره وقدمه عثمان محمد أمين، مطبعة السعادة والجوار، القاهرة، 1931، ص 4.¹¹

* يوم 28 يونيو 1751 صدر في باريس المجلد الأول من "الموسوعة"، أو القاموس المنهجي للعلوم والفنون والحرف (المشهورة باختصارها الفرنسي L'Encyclopédie الأنسيكلوبيدي) المحررة من قبل جان لورون دالمبار (Jean Laurent d'Alembert) ودينيس ديدرو (Denis Diderot). وكانت النية في الأصل أن يقتصر هذا المصنف على ترجمة "سايلوبيديا" Cyclopoedia من تأليف إفراييمشامبرز سنة 1728م، لكن المشروع توسع سريعا ليبلغ عشرة مجلدات ويستمر في النمو. ولما بلغ نهايته سنة 1780م، كان مسردها وحده يتكون من مجلدين، بينما تتألف الموسوعة من خمسة وثلاثين مجلدا تحتوي على ما يزيد على 20.000.000 مفردة.(تيم بلاتينغ، الثورة الرومانسية، ترجمة عبد الودود عمراني، الدار العربية لعلوم ناشرون، بيروت، ط 1، 2013، ص. 23)

Jean-Hugues Barthélémy, Encyclopédisme et théorie de l'interdisciplinarité, « Hermès, La Revue » CNRS EDITION ,¹² 2013/3 n° 67 | pages 165 à 170, <https://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2013-3-page-165.htm> -

L'encyclopédisme, tel du moins qu'on peut le refonder aujourd'hui à la suite du philosophe français Gilbert Simondon¹, possède une vertu majeure : il pratique l'interdisciplinarité par le biais d'une unification philosophique des sciences, tout en offrant les premiers éléments d'une nouvelle et véritable théorisation de l'interdisciplinarité dans ses fondements, et donc dans ce qui peut la justifier.

Jean Louis Fabiani, vers la fin du modèle disciplinaire ? CNRS Éditions | « Hermès, La Revue », 2013/3 n° 67 | pages¹³ 90 à 94,- <https://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2013-3-page-90.htm>

Jean Louis Fabiani, vers la fin du modèle disciplinaire ? CNRS Éditions | « Hermès, La Revue », 2013/3 n° 67 | pages¹⁴ 90 à 94,- <https://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2013-3-page-90.htm>

Raymond Aron, les étapes de la sociologie, Gallimard, 1967¹⁵

¹⁶ Raymond Aron, les étapes de la sociologie, Gallimard, 1967, p 80.

Jean Louis Fabiani, vers la fin du modèle disciplinaire ? CNRS Éditions | « Hermès, La Revue », 2013/3 n° 67 | pages¹⁷ 90 à 94,- <https://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2013-3-page-90.htm>

L'organisation disciplinaire du savoir semble aujourd'hui à bout de souffle, et les injonctions à l'interdisciplinarité sont devenues monnaie courante

* الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصور ومنير الحجوي، ط 1 ، دار توبقال، 2004.

¹⁸ الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصور ومنير الحجوي، ط 1 ، دار توبقال، ص 13.

¹⁹ إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، تر أحمد القصور ومنير الحجوي، ط 1 ، دار توبقال، 2004، ص 16.

²⁰ ن.م.س .

²¹ إدغار موران، النهج، بشرية الإنسانية، هوية البشرية، ترجمة د.هنا صبحي، ط1، أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة،

2009، ص 65

²² م.س.ن، ص 66.

²³ نفسه.

²⁴ م.س.ن،، ص 67.

²⁵ م.ن.س.ن.ص. 70

²⁶ نفسه.

²⁷ إدغار موران، الفكر والمستقل، مدخا إلى الفكر المركب، تر أحكد القصوار و منير الحجوجي، م.م.س، ص 61.

²⁸ Jean Louis Fabiani, vers la fin du modèle disciplinaire ? CNRS Éditions | « Hermès, La Revue », 2013/3 n° 67 | pages 90 à 94,- <https://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2013-3-page-90.htm>

Ibid.²⁹